الكلمة الافتتاحية

بقلم: رشيد بن مالك

يأتي هذا العدد امتدادا طبيعيا للأعداد السابقة من مجلة اللسانيات التي يرجع الفضل في تأسيسها إلى الأستاذ عبد الرحمان الحاج صالح. وقد استطاعت هذه المجلة في ظرف وجيز وفي وسط رافض لكل تغيير، أن تحدث قطيعة إيبستيمولوجية مع القيم التي كانت سائدة في تلك الحقبة، وهزة عنيفة في التصورات الكلاسيكية التي كانت سائدة في التقاليد الأكاديمية ذات التوجهات المحافظة (...) وواصلت دراستها للغة بنفس المناهج التي تركتها الأجيال المتأخرة [1].

لقد تبوأت هذه المجلة، التي تحمل مشروعا علميا، منذ صدورها، مكانة بارزة، وامتد تأثيرها إلى الأوساط الجامعية العربية والدولية، واستقطبت كفاءات علمية في الدراسات اللسانية المعاصرة (مازن الوعر، نعوم شومسكي، جمال الدين كلغلي، عبد القادر الفاسي الفهري، إلخ ...)، وكان ذلك ينبئ بظهور التباشير الأولى لمدرسة جزائرية جديرة بهذا الاسم.

وقد بدأت التوجهات الكبرى لهذا المشروع تظهر بعد إنشاء معهد العلوم اللسانية والصوتية في 1968 بمرسوم 80 ــ 66 الصادر في 1966/4/11. إن فتح هذا المعهد جاء في ظروف سياسية خاصة ترمي إلى رفع التحدي بإحداث تغيير شامل يهدف أساسا إلى تحقيق ترقية اجتماعية واقتصادية وثقافية يكون مرتكزها توجيها علميًّا يحتكم إلى استعمال مناهج وتقنيات العلوم الدقيقة والعلوم التجريبية التي تعد الوسائل الوحيدة التي تضمن للباحث النتائج الملموسة والمعارف الموضوعية. ومن الواضح أن قابلية تطبيق هذه الوسائل في مختلف المجالات شجع علماء اللسان على تجاوز مرحلة الدراسة الفيلولوجية الخالصة والتصدي لمشاكل اللسان من المنظور الفيزيائي الرياضي على نحو ما تعالج الظواهر الطبيعية الأخرى. وقد حقق الحاج صالح هذه النقلة النوعية بفتح أربعة أقسام:

1. قسم الصوتيات التجريبية

إن البحوث التي يضطلع بها هذا القسم تخص المظهر الفيزيائي للكلام أي دراسة أصوات اللغة من حيث إخراجها واستقبالها. وتعمل هذه البحوث على تجلية الكلام الإنساني بفحص ظواهره التوليدية والاهتزازية بواسطة الأجهزة الإلكترونية والآلات الميكانيكية. ولتحقيق النتائج

---

[1] الحاج صالح عبد الرحمان، مدخل إلى علم اللسان الحديث، تحليل ونقد لأهم مفاهيمه ومناهجه في: مجلة اللسانيات، العدد الأول، الجزائر، 1971، ص15.

العلمية المرجوة تمت الاستعانة بباحثين من مختلف الفروع العلمية يتلقون تكوينا لسانيا ينسجم وطبيعة تخصصهم.

2. قسم اللسانيات التربوية

ينهض هذا القسم على الاستعانة بباحثين في علم النفس والتربية يقومون بسلسلة من التجارب للتوصل إلى أنجع الوسائل المنهجية وأكثرها مردودية وفعالية في اكتساب اللغات وتوكل للباحثين مهمة إعداد نماذج تربوية تبنى على عدد من الفرضيات. ويجري التأكد من الروائز التجريبية بصفة تدريجية. ويتناول هذا البحث، في الوقت نفسه، كيفية تحرير الدرس وإجراء التمارين الكتابية والشفاهية والتمارين البنوية في مخبر اللغة باستعمال الوسائل السمعية البصرية.

3. قسم اللسانيات الرياضية

تقع اللسانيات الرياضية بين أحد هذين التوجهين: التحليل الإحصائي والصياغة المنطقية الرياضية للغات البشرية. ويضطلع اللغويون الرياضيون بتحويل نظام اللغات إلى صيغ رياضية كفيلة بتوجيه مجاري اللغة ومخارج الكلام وتأويلها. وقد تكفل هذا القسم منذ 1969 بالتعاون مع قسم جغرافية اللغة بضبط الرصيد الفصيح الأساسي الخاص بالتعليم. ويمكن أن نختصر هذا التعاون في مهمتين متمايزتين: يقوم باحثو جغرافية اللغة بعملية التحري عن المفردات اللغوية التي تشكل معطيات يضعها اللسانيون قيد الدرس والإحصاء. وتنتهي هذه العملية بوضع قوائم تواترية(تدل على مدى شيوع الكلمة) لكل منطقة أو بلد من بلدان المغرب العربي.

4 . قسم جغرافية اللغة

تهدف الدراسات في هذا القسم إلى تحديد التوزع الجغرافي للنزعات اللهجية الجزائرية في مختلف أنحاء البلاد. وتستثمر النتائج في وضع الأطلس اللغوي الجزائري.

تضمن هذه الأقسام تكوينا في الدراسات اللسانية الوصفية والصياغة الرياضية للغات والإحصاء للمفردات والتراكيب والصوتيات الآلية وتجويد الصوت وعلم الأمراض اللغوية وعلم اللسان التربوي وجغرافية اللغة وغير ذلك [2].

وفي بداية الثمانينيات أنشئ ماجستير العلوم اللسانية والتبليغ اللغوي. وقد تفرعت عن المجالات المحددة سلفا تخصصات قائمة بذاتها تهدف إلى الدراسة العلمية لظواهر اللغة:

- علم المفردات وصناعة المعاجم
- الصوتيات والعلاج الآلي للكلام المنطوق
- اللسانيات الحاسوبية
- اضطرابات الكلام
- علم تعليم العربية والإنجليزية والفرنسية

[2] المرجع السابق، ص50.

ومع إنشاء مركز البحث العلمي والتقني لتطوير اللغة العربية في شهر ديسمبر 1991 بالمرسوم التنفيذي رقم 91 ـ447 خلفا لمعهد العلوم اللسانية والصوتية، ولوحدة البحث في علوم اللسان والتبليغ اللغوي، أضحى المركز يضطلع بالمهام الآتية:

ـ إجراء بحوث نظرية حول تطوير اللغة واللسانيات العربية. ويتم ذلك بالتعاون مع المؤسسات المعنية بتوحيد المصطلحات وإقرارها.

ـ المبادرة وتطوير مناهج الترجمة وتقنياتها وتطويرها بغية الاستجابة لاحتياجات المنظومة التربوية والتكوين والبحث.

ـ تنفيذ مشاريع البحث في ميادين علوم اللسانيات وتقنياتها المطبقة على اللغة العربية واللغات المستعملة في التعليم من أجل تطوير اللغة العربية على الصعيدين التعليمي والتكنولوجي.

ـ إنجاز أعمال تتعلق بإحصاء المصطلحات العلمية والتقنية وترشيدها واقتباسها وإنتاجها.

ـ المشاركة في البحث عن المراجع ذات الطابع التربوي والعلمي والتقني وانتقائها ونشرها.

يعد المركز في إطار تقويم نتائج البحث بالتعاون مع المؤسسات والهيئات المعنية، منهجية لاستعمال اللغة العربية استعمالا وظيفيا، ويجمع الوسائل الملائمة لتنفيذ مشاريع تخص تكوين الإطارات، ولاسيما إطارات التعليم والتكوين العاليين والبحث، وتحسين مستواهم، وتجديد معلوماتهم من أجل اكتساب اللغة العربية وإجادتها.

على أساس هذه التوجهات العامة ينهض المركز على أربعة أقسام. يشتمل كل قسم على أربع فرق بحث تتوزع على النحو الآتي:

ـ قسم علم تعليم اللغة العربية وتعليم اللغات المقارن

ـ قسم التبليغ المنطوق وأمراض الكلام

ـ قسم المعلوميات اللسانية

ـ قسم اللسانيات العربية والمعجميات والمصطلحات العربية وعلم الترجمة.

ولإنجاز المشاريع البحثية بالمركز، يضطلع الباحثون بتحضير وتنفيذ برامج علمية في اللسانيات العربية وذلك بالتركيز على النظرية الخليلية الحديثة للباحث عبد الرحمن الحاج صالح ومحاولة تعميقها وتطويرها وإجراء مقارنة بينها وبين النظريات اللغوية الأخرى. كما يسهر باحثون آخرون في علم تعليم اللغات وتعليم العربية على تقديم دراسات علمية نقدية لتعليم العربية واللغات الأجنبية في الجزائر وتنظيم الحلقات التعليمية التجريبية المقارنة، وضبط طرائق التعليم اللغوي.

وينصب البحث، من جهة أخرى، في إطار العلاج الآلي للغة، على الدراسة النقدية للنظريات العلمية والقيام بضبط البرمجيات وغيرها من الأدوات الحاسوبية لاستثمارها في تعليم اللغات والمعجميات وأمراض الكلام وقواعد المعطيات وغير ذلك. كما يقوم المركز بإنجاز بحوث مخبرية في الصوتيات والعلاج الآلي للكلام المنطوق وإعداد الأدوات الحاسوبية المناسبة

لتحليله وتركيبه الاصطناعي واستكشاف هوية عناصره بكيفية آلية وهذا يسهل مهمة وضع الأجهزة الخاصة بالتعرف الصناعي على الكلام واصطناعه. وإلى جانب هذه البحوث،تنجز دراسات عيادية في مختلف عاهات الكلام وخاصة الحبسة، ولتحقيق ذلك يقوم الباحثون بإعداد منهجية لتشخيص اضطرابات الحبسة وضبط طرائق مناسبة لعلاجها.

ومن الواضح أن الخطاب اللساني العربي لا يستقيم إلا بالتركيز على علم المعاجم والمصطلحات العربية قصد المساهمة في ضبط المصطلحية العلمية والتقنية على مستوى العالم العربي.ويتحرك هذا المشروع الخاص بالتأسيس لخطاب علمي في اتجاهين أساسيين. يهدف الاتجاه الأول إلى إنجاز مشروع الذخيرة اللغوية من خلال العلاج الآلي للغة العربية.وهذا العمل الضخم الذي يتطلب طاقات كبيرة ييسر للباحث سبل استشارة التراث في مختلف الميادين العلمية والوقوف على المصطلحية العربية التي طوعها العلماء العرب في خطاباتهم العلمية.ويرمي الاتجاه الثاني إلى إجراء دراسات علمية في طرائق الترجمة وضبط تقنياتها التي تستجيب لحاجيات مترجمي الكتب العلمية. ولما كانت هذه العملية في غاية الأهمية نصبت بالمركز في شهر سبتمبر الماضي خلية ترجمة تحمل على عاتقها ترجمة البحوث العلمية بالتنسيق مع مختلف فرق البحث بالمركز. ولاحتواء المكون الدلالي في الخطابات استحدث قسم السيميائيات المتشكل من أربع فرق تضع قيد الدرس والتحليل الإنجازات السيميائية الراهنة وترجمة نصوصها ومصطلحيتها بالاشتغال على البحوث الدلالية التراثية.

وإذا أمعنا النظر في المسارات العلمية التي غذت معهد العلوم اللسانية ومركز البحث العلمي والتقني لتطوير اللغة العربية لاحقا، فإننا نلاحظ حدوث هزات عنيفة حركها مشروع سرب قيما جديدة تشجع على التفكير في مجال هيمنت عليه ولحقب طويلة تصورات كلاسيكية عطلت حرية الباحث المشروعة في تمحيص المسائل وتقليبها على مختلف أوجهها والنظر في آليات المنطق الذي يحكمها والتحقق من صدق أو كذب مضمونها. من هذه المنطلقات يهدف هذا المشروع الطموح إلى إعادة توزيع الأدوار وإرساء قواعد البحث العلمي لدراسة اللسان البشري والتعريف بما انتهت إليه البحوث اللسانية في مختلف أنحاء العالم. ولعلنا لا نغالي إذا قلنا إن هذا المشروع سابق لزمانه مقارنة مع ما كان يدرس في المؤسسات العلمية العربية.وهو مشروع ما كان يمكن أن يستمر لولا طموحات باحثين تملكهم الرغبة في قلب سلم القيم الهش الذي أفرز فراغا علميا رهيبا لعل أحد سماته المميزة هو افتقاد اللغة التي كانت مسيّجة في أطر الشعر والاستعارات الخلابة المحيرة والتشبيهات البليغة إلى المفردات العلمية الكفيلة بالحديث عن مضمون الإنجازات العلمية في شتى المجالات ومجاراتها.

إنّ مجرد الحديث عن هذه الظاهرة عد في تلك الحقبة شذوذا وخروجا عن المألوف وسيرًا في اتجاه معاكس للتيار. ومع كل هذا، فقد وجب التفكير في تلك المرحلة في الآليات التي يمكن من خلالها إرساء دعائم برنامج علمي يأخذ أصحابه على عاتقهم الاضطلاع باللغة العربية والنهوض بها وترقيتها انطلاقا من رؤية مؤسسة تأخذ في الحسبان التراث اللساني العربي

والإنجازات اللسانية الراهنة. على أساس هذه التوليفة حصرت العقبات الحقيقية التي تعترض سبيل الباحث في مشكلتين أساسيتين:

ـــ مشكلة اللغة العلمية والمصطلحات

ـــ مشكلة الأوهام العلمية الشائعة المسلمة.

إن صياغة عناصر إجابة للمشكلة الأولى التي طرحها ببعد النظر الباحث الحاج صالح في 1971 ظلت على حالها معلقة إلى يومنا وهذا على الرغم من أن الباحثين في البلدان العربية تنبهوا إليها وإن في وقت متأخر جدا، ونظمت حولها ندوات علمية، ومؤتمرات، وألفت فيها المجامع اللغوية العربية والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم معاجم نفترض أنها تيسر السبل لفهم المصطلحيّة المعتمدة في البحوث اللسانية.

لقد ظلّ الخطاب اللساني متعثرا تعبره خطابات متضاربة في مصطلحيّتها ومتنافرة في الأولويات التي ينبغي أن تؤخذ في الحسبان أثناء التصدي للتيارت اللسانية. وفي غياب التحري الجماعي، هيمنت الجهود الفردية وأبدى كل باحث رغبته في فرض مصطلحيّته من زاوية نظره دون أن يعير أدنى اهتمام إلى منظورات الباحثين الآخرين.

وعندما يهتز موقفه، فإنه لا يبين أي قابلية للتنازل عن الموقع الذي كان يحتله؛ ومادامت الأمور على هذا النحو فقد أضحى القارئ العربي في حيرة من أمر هذه الخطابات التي يقرأها ولا يفهمها، بل صارت مستعصية على الفهم حتى على المتخصصين. وكثيرا ما يفضل القارئ الذي يتقن اللغة الأجنبية الإطلاع على هذه المعرفة باللجوء إلى مصدرها. والغريب في الأمر أن المصطلحات المعتمدة في الدراسات اللسانية المعاصرة اختلطت فيها الترجمات الرديئة بالجيدة .وحتى الترجمات المؤسسة التي بذلت فيها جهود كبيرة لا نعرف الطريق الذي يقودنا إلى أصحابها. وقد أضحت عملية السطو السمة البارزة في الخطاب اللساني المعاصر. وكثيرا ما ينقل المصطلح الواحد إلى ترجمات عديدة على نحو ما نلمس ذلك بشكل واضح في المعجم الموحد الصادر عن منظمة رسمية. وإذا كان هذا المعجم موحدا فلأنه في الظاهر يشكل إجماعا يلغي التعدد.

من حق القارئ أن يتساءل عن هذه التعددية المفرطة التي تسربت إلى الخطاب اللغوي والتي لا تساعده في جميع الحالات على الدخول في وصلة علمية حقيقية بهذه المعرفة التي يتطلع إلى فهمها على أحسن وجه.

إزاء هذا الوضع المتردي، تظل الضمانة الوحيدة لترقية البحث واللغة العربية مرهونة بالعمل المتواصل والحوار المؤسس والاستشارات الواسعة والتحري الجماعي. إن ترقية البحث وحل المعضلات الكبرى بجميع مستوياتها في الدرس اللساني لا يمكن أن يتحقق إلا بوضع استراتيجية علمية وتعبئة الطاقات لتحقيق الأهداف المسطرة. وهي أهداف لا يمكن بلوغها إلا ببذل الجهود لترجمة أكبر قدر ممكن من النصوص اللسانية التي تشكل نقاطا معلمية في الدرس اللساني

المعاصر. وتعدّ الترجمة المؤسسة للمصطلح عبر تمثله في مختلف سياقاته محصلة طبيعية للممارسة المتواصلة والتعامل المكثف مع النصوص.

وفي النهاية، لا يسعنا إلاّ أن نقدّم شكرنا الخالص للباحثين الذين شاركوا في انجاز هذا العدد من المجلّة، ونعبّر كذلك عن ابتهاجنا الكبير بمشاركة الباحث برنار بوتييي معنا ببحث في هذا العدد.